اسم المصدر: الجزيرة

التاريخ: 19-12-2008 رقم العدد: 13231 رقم الصفحة: 31 مسلسل: 231 رقم القصاصة: 1

مضامين وأبعاد سامية جلية في كلمة ملك الإنسانية بعثات الحج

أ.د سليمان بن عبدالله أبا الخيل - مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

في خضم أعمال الحج، وفي أوج الاستعدادات، وضمن الجهود التي توجه إلى ضيوف الرحمن في موسم كل حج على مستوى القادة والرؤساء والممثلين للدول العربية والإسلامية، يجري في كل عام، وتحديداً في أول أيام التشريق لقاء بشرفه خادم الحرمين الشريفين، وتتم الدعوة الشخصية إليه، يستهدف هذا اللقاء القياديين المسؤولين عن أمور الحج خصوصاً، وشؤون المسلمين في البلاد التي يمثلونها.

وهذا الاحتفاء وتلك المناسبة الملكية عرف جرى عليه قادة هذه البلاد - أيدهم الله وزادهم تمكيناً - تفعيلاً لمواسم الحج في تحقيق مقاصدها، وتجلية حقائقها، واستثمار منافعها الدينية ،التي هي جزء من معنى قوله سبحانه: {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ}.

إن المملكة العربية السعودية ممثلة بقيادتها الحكيمة، وولاة أمرها الأوفياء، يعلمون قيمة هذا المؤتمر الإسلامي العالمي، الذي يجسد وحدة الأمة، وتماسكها، وتضامنها، وظهورها بمظهر فريد، لا يتكرر في أي مجال، وعلى أي صعيد إلا في هذه البقعة المباركة، ومن هنا وعلى أساس هذا الثقل العالمي الذي يعد شرفاً ومسؤولية تتحمل المملكة مسؤولياتها، وتسعى جاهدة لاستغلال هذه المناسبة المتميزة لتفعيل صور الإخاء والتضامن، وتحقيق أهداف هذا الموسم العظيم والشعيرة الجليلة التي من أجل مقاصدها، وأجلى غاياتها هذا الجانب الهام.

ومتابعة دقيقة لسجل انجازات إمامنا وقائد مسيرتنا ملك الإنسانية، وحامل لواء السلم والسلام، والرجل العظيم الذي شكلت مبادراته، ورؤاه أساساً لانطلاقة متميزة في عالم العلاقات الدولية، من خلال آليات واعية منضبطة، تجعل الحوار منطلقاً لها، والقيم المشتركة أساساً للتعامل مع الآخر، والطرح الإسلامي الوسطي إطاراً لهذا الحضور العالمي الذي بسببه أصبحت الصورة الناصعة للإسلام وأهله تظهر جلياً للعالم، وتضمنت رداً عملياً على ما يلصق بالإسلام زوراً وبهتاناً من أفكار التطرف والغلو، واستطاع القائد المحنك بما منحه الله من قدرات أن يجتذب الأفئدة والأنظار إلى هذه الصورة المثالية، وأن يقودنا باقتدار إلى المكانة التي تليق بهذه البلاد على رغم العقبات الكئاداء، والنظرة السلبية التي حملها العالم عن الإسلام وأهله بسبب الأفعال المنكرة، والجرائم الشنيعة التي ألبست زوراً وبهتاناً لبوس الإسلام، ونسبت إلى شعائره، وهو منها براء.

وإن مما يستحق الوقوف عنده، والإشادة بمضامينه، وإظهار أبعاده، وتجلية حقائقه خطاب المليك المفدى في الحفل الخطابي في موسم حج هذا العام 1429هـ وفي العام الماضي 1428هـ، حيث يعتبر الخطاب مشروعاً جباراً، ومبادرات هامة، ومرتكزات أساسية لعملية السلم والسلام، فأكمل في هذا العام ما بدأه في العام الماضي، وأحال - يحفظه الله - في خطابه الملكي على ما تحقق من انجازات فعلية بنيت على ما طرحه في موسم الحج المنصرم، ومن هنا فإنني محبة لديني ووطني ومليكي، وشعوراً بأهمية الخطاب والمخاطب والمناسبة، أقف وقفات متأمل مع الخطاب الملكي في المناسبتين، وابدأ بما حصل في العام الماضي، ففي اليوم الحادي عشر من ذي الحجة، وفي بلد حرام، ومشعر حرام، وفي قصر في تحديداً أقام خادم الحرمين الشريفين الملك المفدى عبدالله بن عبدالعزيز - حفظه الله وأدام عليه لباس الصحة والعافية، وأتم عليه النعمة، الاحتفال السنوي.

وفي الحفل الخطابي بهذه المناسبة كانت تلك الكلمات المباركات، وذلك الخطاب الملكي لخادم الحرمين الشريفين - حفظه الله - الذي حوى على وجازته دلالات عظيمة، ومحاور عديدة، تعد كما ذكرت مرتكزات أساسية لفهم عالميه الإسلام والدعوة الإسلامية، والتشرف بحمل هذه الرسالة لإيصال هذا الخير إلى أقطار الدنيا، ولذا فإنه يستحق هذا الخطاب والخطاب الذي كان في موسم حج هذا العام التأمل والوقوف عند مضامينهما، وأعتقد أن فيها ما يهم المسلم باعتبار أنه جزء من هذه الأمة التي عصفت بها الفتن، وفرقتها الخلافات والقوميات والحزبيات، ليتحمل مسؤوليته تجاه دينه وعقيدته، وتجاه نفسه، وتجاه أمته، باعتبار أنه عضو فاعل في جمع الكلمة ووحدة الصف، وتوحيد الشمل ،ويهم المواطن باعتباره فرداً من أفراد هذا الوطن الإسلامي الذي من الله عليه بهذه القيادة الحكيمة التي يمتلك قائدها حساً إنسانياً رفيعاً، وروحاً إسلامية عالية، وهماً تجاه أمة الإسلام فلم ينغلق على شعبه ووطنه فحسب، بل ها هو من خلال كلمات سامية يشير إلى حقيقة أصيلة في سياسته، وهو أنه ذو نزعة جماعية، وتمسك بثوابت الإسلام ومبادئه، ويهم أيضا علماء الإسلام وطلاب العلم، وكل من يعمل في حقل الدعوة الإسلامية، وذلك للمشاركة الفاعلة المؤثرة في بناء الخطاب الإسلامي على هذه الجوانب الأساسية التي سبب فقدها خللاً في مسار الدعوة وتأثيرها في الأوساط المستهدفة بها، ويمكن تجلية هذه المضامين والأبعاد والحقائق التي تضمنها الخطابان فيما يأتي:

1 - في خطاب العام الماضي استهل المليك المفدى خطابه بعد الثناء على الله ،والصلاة والسلام على رسوله الكريم، والتهنئة بعيد الأضحى المبارك، وبالدعاء للجموع الحاشدة بالرحمة والمغفرة، والدعاء بأن يمكن عباده من القيام بمسؤوليتهم تجاه ربهم ودينهم، ثم تجاه أنفسهم وأوطانهم وأمتهم والإنسانية جمعاء تسامحاً وتواصلاً وعملاً وإعماراً، وكذلك في خطاب هذا العام.

وهذا بُعْدٌ إيماني يتجلى فيه عمق الإيمان، والصلة بالله، والاعتماد عليه، والتطلع إلى رحمة الله وعفوه ومغفرته، التي هي سبب للصفاء والنقاء، والبعد عن أسباب النقص والخذلان، وهذا شأن المسلم، فالملك عبد الله هو ذلك الإنسان المسلم الأصيل الذي يرى في التمسك بالإسلام ومنهجه وثوابته أساسًا لكل خير، ويجسد وهو قدوة لكل مسلم ضرورة الالتجاء إلى الله والإلحاح عليه، ثم يضمن هذه الدعوات ما هو تذكير من وجه، وربط شرعي من وجه آخر، فهو تذكير بالمسؤولية التي يتحملها كل منا تجاه ربه ودينه، ثم تجاه نفسه ووطنه وأمته والإنسانية جمعاء، وهي مسؤولية عظيمة، لا تتحقق إلا بعزيمة صادقة، ونية صالحة، وعمل دؤوب، واستشعار لهذه المسؤولية.

والربط بين استشعار المسؤولية والعمل على تحقيق متطلباتها شأن آخر، وهو من الأهمية بمكان، فالدعاء أساسه الإيمان الذي يدفع صاحبه إلى طلب حاجته من ربه والاعتماد عليه في ذلك .وثمرة هذا الإيمان هو العمل الصالح الذي يتفاعل مع الدعاء فيثمر ما ينفع الأمة في العاجل والآجل من خلال المسؤوليات التي يتحملها الأفراد وتتحملها المجتمعات.

وثمت محور هام أشار إليه - يحفظه الله - بالترتيب في هذه الدعوات .وهو الأولوية في هذه المسؤوليات، فأعظمها المسؤولية تجاه الله تعالى ودينه، تحقيقًا للغاية التي خلق الله الخلق لأجلها، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ.}

اسم المصدر: الجزيرة

التاريخ: 19-12-2008 رقم العدد: 13231 رقم الصفحة: 31 مسلسل: 231 رقم القصاصة: 2

وتتضمن هذه المسؤولية القيام بالعبودية الكلية على التوحيد التام .والإيمان الكامل خير قيام، وما يكون من مسؤولية تجاه النفس والوطن والأمة فهي خادمة لهذا الأصل الأصيل، ومنسجمة معه، لا تتعارض ولا تتصادم مع مبادئه، وهذه القضية بدهية، ولكن الإشارة إليها من باب البيان والتفصيل من وجه، وللتأسيس عليها فيما يأتي من مضامين الخطاب الملكي، حيث إن الدعوة التي تبناها خادم الحرمين الشريفين – أيده الله – إلى الحوار والتسامح وتجاوز الخلافات، وتقريب المسافات منطلقة من هذه المسؤوليات والثوابت.

2 – البعد الثاني الذي أبرزه خادم الحرمين الشريفين في كلمته: البعد الإسلامي العالمي، حيث قال يحفظه الله: (أيها الإخوة الكرام: في كل موسم حج تتأمل هذه المشاعر المقدسة التي يلتقي على صعيدها حجاج بيت الله الحرام، وقد جاؤوا من مشارق الأرض ومغاربها، أرى فيهم الدنيا جميعها بمجتمعاتها وثقافاتها وأعراقها وأخلاقها وتقاليدها ومعتقداتها، أنظر فأرى الإنسانية قد تجمعت هنا بأبهى صورها .وأرى من خلالهم أنه مهما تعددت المشارب والألوان والأعراق فإننا على امتداد العالم أجمع بحاجة إلى أن نتذكر ما يجمعنا من قيم مشتركة، وما يربط بيننا من إيمان بالرب جل وعلا).

إنه استشعار من خادم الحرمين الشريفين، وإمام المسلمين، وولي أمرهم في هذه البقاع المقدسة لمبدأ عظيم من المبادئ التي يقوم عليها هذا الدين العظيم والرسالة الخاتمة، وقيام بمسؤولية هذه البلاد تجاه العالم الإسلامي بل تجاه المسلمين في العالم أجمع، إنه مبدأ الشمولية والعالمية في رسالة هذا الدين، والذي يتجسد في هذه الصورة الجزئية التي تبهج النفس، وتسر الخاطر، حينما يجتمع على هذا الثرى الطاهر المبارك، والمشاعر المقدسة جميع من باقطار الأرض، على اختلاف مجتمعاتهم وأعراقهم وثقافاتهم وأخلاقهم، وتقاليدهم، وتباين ألوانهم وألسنتهم، لكن يؤلف بين هذه الجموع الحاشدة دين واحد، وتجمعهم عبودية واحدة، وتظهر هذه الوحدة في العبادات والشعائر والمشاعر .والهدف والتوجه والقصد، بل حتى الزي والمظهر، لا فرق بين الغني والفقير، والشريف والوضيع، والصغير والكبير، ولا بين الألوان المتباينة، والألسن المختلفة، الكل قد توحدوا تحت راية هذا الدين، وهذا التوحد رسالة إلى المسلمين جميعاً أن هذا قدرهم، وتلك مسؤوليتهم أن يجتمعوا ويتوحدوا، ومن هنا يأتي هذا التذكير من إمام المسلمين بضرورة هذا الاجتماع، وأنه مقصد من مقاصد الدين عموماً، ومن مقاصد هذه الشعيرة العظيمة شعيرة الحج على وجه الخصوص، وتحقيقها جزء من معنى قوله تعالى: {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ} فهي منافع دينية ودنيوية.

ولو عدنا إلى حجة النبي صلى الله عليه وسلم، وما كان منه من إعلان كثير من مبادئ الدين في خطبته في حجة الوداع، ومنها خطبته يوم عرفة، ويوم النحر وأيام التشريق، وقد تضمنت تلك الخطبة ما ذكره به خادم الحرمين الشريفين – يحفظه الله – أخرج الإمام أحمد في مسنده عن جابر رضي الله عنه أنه سمع خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في وسط أيام التشريق، فقال: (يا أيها الناس: ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلغت؟ قالوا: بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: أي يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام، ثم قال: أي شهر هذا؟ قالوا: شهر حرام، قال ثم قال: أي بلد هذا؟ قالوا: بلد حرام، قال: فإن الله قد حرم بينكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، أبلغت؟ قالوا: بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ليبلغ الشاهد الغائب).

إن الرسالات التي سبقت الإسلام كانت غير شاملة بالنسبة للدعوة نفسها، فلم تكن الدعوة كاملة التفاصيل، وإنما حوت ما يستطيع العقل آنذاك هضمه وفهمه، وكانت كذلك غير شاملة للبشرية، فقد كانت الرسالة محددة لقوم معينين، وجاءت رسالة الإسلام، وهي خاتمة الرسالات شاملة عامة عالمية للناس كافة إنسهم وجنهم، ومن هنا تحتم أن يوجد فيها من العناصر ما يجعلها تناسب كل زمان ومكان، ومن أهم هذه العناصر: شمولها لألوان واسعة من التعاليم في الميادين المختلفة، كنظام الميراث والزواج والطلاق والسياسة والاقتصاد وغيرها، ثم كان من عناصر هذه الرسالة أيضاً أن تعترف بالرسالات السماوية السابقة، وبما جاء به هؤلاء الرسل من كتب، ونجد ذلك جلياً في أمر الله تعالى للمسلمين في قوله تعالى: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}.

فالمجتمع الإسلامي إذن مجتمع عالمي، بمعنى أنه مجتمع غير عنصري ولا قومي، مجتمع مفتوح لجميع بني الإنسان، دون النظر إلى جنس أو لون أو لغة، يتآلف المسلمون أينما كانوا وأيا كانت قوميتهم أو لغتهم.

إن الإسلام ينفي منذ اللحظة الأولى كل نعرة جنسية أو عنصرية، فيرد البشرية كلها إلى أصل واحد، ويقرر أن لا فضل فيها لجنس دون جنس، ولا ميزة لعنصر دون عنصر، وأن اختلاف الألوان واللغات لا يدل على أفضلية، ولم يَرِدْ به إلا التعارف لا التناكر، وأن هناك ميزانا واحدا لتقدير الأفضلية هو تقوى الله وطاعته والعمل الصالح في عباده، وهي أمور شخصية لا علاقة لها بالأجناس والألوان، ويؤكد ذلك قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}، وقوله صلى الله عليه وسلم: (لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى).

الأمة الإسلامية أمة عالمية يجمعها أمر واحد ودين واحد، وتكاليفها واحدة، وهي تحمل أمانة الشهادة على الناس يوم القيامة، قال الله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً}، ولكن هذه الوحدة البشرية التي جاء بها الإسلام لم تمح خصوصيات الشعوب، بل اعتبر الله تعالى التمايز بين الناس لونا وعرقا ولسانا آية من آياته، كما ورد في الآية الكريمة: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ}.

هذا البعد العالمي هو ما استشعره خادم الحرمين الشريفين – حفظه الله وأعز به دينه – وهو يبدي إعجابه بهذه الصورة البهية التي اجتمعت من شتى أقطار الأرض .وهذا السرور الذي أبداه – حفظه الله – إدراك منه لمقاصد هذه الشعائر في لمّ الشمل، ووحدة الكلمة، وإحياء معاني الأخوة الإسلامية التي تقوم على أصل عظيم، ورابطة مقدسة هي رابطة الدين التي هي الأصل في الروابط، بل لو تعارضت الروابط الأخرى من رابطة النسب والقرابة واللغوية وغيرها مع هذه الرابطة قدمت عليها، كما دل على ذلك قوله تعالى: {لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.

إن هذه اللفتة الإسلامية من إمام المسلمين يجب أن تكون مثار تقدير واحترام لهذا القائد الفذ، والملك المسلم الذي حباه الله من الصفات، والأخلاق التي شهد له بها القاصي والداني، ووفقه لهذه المواقف التي لا يقوم بها إلا عزمات هؤلاء الرجال، وهي تحمّل من حضر من الشخصيات الإسلامية مسؤولية المشاركة الفاعلة المؤثرة في معالجة الأوضاع الداخلية للأمة الإسلامية على أسس ذكرها خادم الحرمين – يحفظه الله –، أبرزها: ما يربط بين هذه الشعوب من الإيمان بالله الذي هو أساس الأخوة في الدين، وعليه تبنى مقتضيات الأخوة ومعانيها.

وثانيها: القيم المشتركة التي تجمع الشعوب الإسلامية، وهي قيم عالمية تؤسس لبناء متماسك مترابط، أدق وصف له ما ذكره الرسول المجتبى والنبي المصطفى في مثلين ذكرهما للمؤمنين، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضوا تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى)، وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا).

هذه القيم بجميعها قول الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}. إنها قيم العدل، والإحسان، والصلة، والفضيلة، والبعد عن الرذائل والعدوان والبغي، وبذلك تقوم مجتمعات المسلمين على أسس متينة قوية، وينتفي عنها بذلك كل الصفات المرذولة.

اسم المصدر: الجزيرة

التاريـــخ: 19-12-2008 رقم العـدد: 13231 رقم الصفحة: 31 مسلسـل: 231 رقم القصاصة: 3

- إن هذه اللفتة التي أشار إليها خادم الحرمين الشريفين - حفظه الله - هي جزء من رسالة المملكة تجاه المسلمين في العالم أجمع، وهي أصل من الأصول التي قامت عليها هذه الدولة المباركة، ولذلك فإمامنا خادم الحرمين الشريفين يقتفي إثر آبائه وأجداده الذين عاهدوا الله على جمع كلمة المسلمين، وبذلوا التضحيات في سبيل ذلك، يقول الملك المؤسس الباني الإمام عبدالعزيز بن عبدالرحمن - طيب الله ثراه -: (أنا مسلم، وأحب جمع كلمة الإسلام والمسلمين، وليس عندي أحب من أن تجتمع كلمة المسلمين، وإنني لا أتأخر عن تقديم نفسي وأسرتي في سبيل ذلك)، ويقول - رحمه الله -: (إن المسلمين بخير إذا اتفقوا وعملوا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ليتقدم المسلمون للعمل بذلك، فيتفقون فيما بينهم على العمل بكتاب الله وسنة نبيه وبما جاء فيهما، والدعوة إلى التوحيد الخالص، فإنني حينذاك أتقدم إليهم وأسير وإياهم جنبًا إلى جنب، في كل عمل يعملونه، وفي كل حركة يقومون بها).

وتتحمل المملكة العربية السعودية هذا الموقف الإسلامي الذي يهدف إلى التضامن وجمع الكلمة ووحدة الصف بما بوأها الله به من مكانة دينية شرعية في العالم الإسلامي، فهي بمثابة القلب من الجسد، تحوي المقدسات، وتضم المشاعر، ومنها انطلق الإسلام إلى بقاع المعمورة، وقبل ذلك هي مهد الرسالة ،ومهبط الوحي، ومأرز الإيمان، فلا غرو أن يكون هذا الهم العظيم من قدر من اختارهم الله لولاية هذا البلد الإسلامي إدراكًا منهم لأثر هذه البلاد على غيرها. ولذلك فهي القدوة والأسوة لبقية بلاد المسلمين، ونسأل الله أن يحقق هذا الاجتماع والوحدة على يد خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله - يحفظه الله -.

- أما البعد الثالث: فهو البعد العالمي الإنساني، الذي دعا فيه - حفظه الله - إلى تجاوز الخلافات، وتقريب المسافات مع العالم أجمع، حيث قال: (أيها الإخوة الكرام: إن الأديان السماوية الكبرى، وما أُنْزِل على سيدنا إبراهيم من حنيفية سمحة تجتمع على مبادئ كبرى، وتشترك في قيم عظيمة تشكل في مجموعها مفهوم الإنسانية، وتميز الإنسان عن غيره من المخلوقات مبادئ الصدق والأمانة والتسامح والتكافل والمساواة وكرامة الإنسان، والحرص على أساس كل مجتمع، ألا وهي: الأسرة).

إنها رؤية متوازنة، ونظرة ثاقبة، ودعوة من قيادة بلد السلام إلى العالم أجمع، أنه مهما توسعت الهوة، وقوي الخلاف والاختلاف، وساد منطق القوة، فإن في القيم المشتركة، وفي أصول الأديان من عالمية القيم، وعالمية المثل، وعالمية الفطرة ،وعالمية النظام الاجتماعي ما يمكن من التغلب على الصعوبات والمشاق، ويجمع القلوب المتنافرة، والجانب الذي أكد عليه خادم الحرمين الشريفين - يحفظه الله - يشير إلى البعد الديني في العلاقات الدولية. على اعتبار أن فهم هذه القيم يؤدي إلى تكوين رؤية سليمة لتعقيدات الواقع الدولي ،وأن في الأطر الدينية الصحيحة والسليمة من المرونة والشمولية والصلاحية لاستيعاب تلك الظواهر المتباينة في واقع علاقات الدول، فمن يتأمل هذه القيم المشتركة التي جاءت بها كل ملة، واتفقت عليها الأديان ويقارنها مع الأحكام التفصيلية التي دونها العلماء في أبواب الفقه في أحكام التعامل مع المسلم وغيره وينظر بعين البصر والبصيرة في هذا الشأن المهم يجد أن فيما يذكره خادم الحرمين الشريفين أساسا لمعالجة الواقع الدولي بصورة مثالية للتطبيق، تحفظ الحقوق، وتبني الحضارات، وتؤسس لعلاقات متوازنة يسودها الأمن والأمان والسلام والاطمئنان، وكل مبدأ من هذه المبادئ وقيمة من هذه القيم التي ذكرها خادم الحرمين لو وقف عندها المتأمل مستدلاً لها مبينًا أثرها في فهم صورة العلاقات الدولية لوجد أنها تشكل قيمًا مشتركة من وجه، ومقاصد شرعية في جانب العلاقات والتبادل السياسي مع المسلمين وغيرهم من وجه آخر، ومن وجه ثالث تمثل التوازن المطلوب الذي يجنب العالم الأطراف المذمومة من جهة الإفراط والتفريط والغلو والجفاء، ولذا فإن سبيل تفعيل هذه القيم المشتركة هو التأصيل والاستدلال، وذكر وجهة النظر الشرعية المبنية على هذه الأصول، والإعلام بهذه الرؤية الوسطية المتوازنة عبر وسائل الإعلام المختلفة، لإيصال هذه الصورة المشرقة المنبثقة من الفهم العميق لقواعد الإسلام وأحكامه وقيمه وآدابه، واستعمال كافة الأساليب والطرق التي تظهر هذه الصورة المشرقة، والأسس العالمية، ويتأكد البيان في هذا الوقت الذي أظهرت النظرة المتطرفة صورة سلبية عن الإسلام، وجرأت خصوم الإسلام وأعداء المسلمين عليهم، بما ارتكبه أصحاب الأفكار والمبادئ المنحرفة من تصرفات وأفعال مشينة، تنكبت الطريق الصحيح، والصراط المستقيم، ونسبت تلك الأفعال والتصرفات زورًا وبهتانًا إلى الدين، والدين منها براء، ومارسها أصحابها بأسماء وألقاب وظفت المصطلحات الشرعية لخدمتها، فكانت هذه الصور السلبية التي لابد من تحمل المسؤولية الفردية والجماعية لنقدها وتصحيحها، ولإظهار الصورة المثلى للإسلام.

ودعوة خادم الحرمين الشريفين - أيده الله - البشرية للعودة إلى طريق السلام ،وتجاوز الخلافات، وتقريب المسافات بين الشعوب هي دعوة عالمية، تنطلق من هذه الأسس العظيمة وتنتهج الأسلوب الأمثل، والطريق الأقصر، من خلال الحوار والإفادة من النماذج الحديثة التي لها أثر في بلورة مفاهيم العلاقات وصياغة معالمها مثل المؤتمرات الدولية، والوفود البرلمانية وغيرها، وهذا ما دأبت عليه المملكة في المحافل الدولية، ودعت إليه وسعت، وليس الأمر مقتصرًا على الجهد السياسي المبذول في هذا الشأن بل حتى على المستوى العلمي والتعليمي والبحثي والأكاديمي، ولذلك فإن الحوار كوسيلة مثلى شأن عظيم، يقرب المسافات، ويختصر الطرق، ويفعل في النفوس ما لا تفعله الأسلحة العسكرية، لأنه يعتمد

اسم المصدر: الجزيرة

التاريخ: 19-12-2008 رقم العدد: 13231 رقم الصفحة: 31 مسلسل: 231 رقم القصاصة: 4

أسلوب الإقناع العقلي، وإثارة الدافع للقبول ،والحاجة في ظل الظروف الآنفة ماسة لمثل هذا الأسلوب الذي دعا إليه خادم الحرمين الشريفين في العلاقة مع غير المسلمين، بل وحتى في تصحيح المفاهيم، وتنقية الإسلام مما علق به من شبه وبدع وخرافات، يستند في الحوار على ما ذكره خادم الحرمين الشريفين – يحفظه الله – من قيم مشتركة هي نقاط اتفاق ينطلق منها لتقريب وجهات النظر، وليس بالضرورة أن تنتهي بالإقناع ورد الطرف الآخر إلى مراد المحاور والمناظر، وإنما يكفي ذلك لإثبات قوة الحجة وسلامة المبدأ، ويظهر من خلال الحوار التسامح الذي هو ميزة الإسلام والوسطية التي هي قاعدته، لأن الحوار صورة من صور الإحسان الذي يملك القلوب، وإذا برزت هذه الأخلاق السامية في ذلك من خلال دلائل النصف والمحبة والتسامح والصفح، وأطر بأطر القيم صار دعوة قولية وفعلية إلى السلام والإسلام، والمتأمل لواقع الأمة الإسلامية والدعوة إلى هذا الدين يحيل جزءاً كبيراً من الفشل في إثبات عالميته إلى هذا السبب الرئيس، وهو خلوه من اللغة الحوارية التي تعتمد الوسطية والتسامح، والله تعالى يقول مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم وأمته تبع له: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، وقال: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾. فحقيقة ومصداقية القيم والأخلاق والتعاليم تعرف بمدى تمسك وسلوك أصحابها، وغلبة الحق بالكلمة والحجة والبرهان، لا بالسباب والشتائم وإقصاء الآخر، وإلغاء شخصه، وهذا التوجيه الملكي من لدن خادم الحرمين الشريفين بتفعيل لغة الحوار سياسة انتهجتها الدولة للتواصل مع الأمم، وتبادل الثقافات، وحوار الحضارات، ولذلك فهذا القول يصدقه الفعل من خلال قنوات متعددة أنشئت لهذا الغرض المهم، ونحن في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وهي الجامعة العريقة التي وصفت بأنها لا تغرب عنها شمس وكان لها تجارب ناجحة في إثراء لغة الحوار والتواصل مع الآخر، وقد توجت هذه الجهود المباركة بالموافقة السامية، والمبادرة الكريمة بإنشاء مركز الدراسات المعاصرة وحوار الحضارات في الجامعة ليكون منطلقاً علمياً وعملياً من خلال أهدافه ووحداته لتحقيق ما يصبو إليه خادم الحرمين الشريفين – أيده الله –،وها هو – يحفظه الله – يدلل على أن هذه المبادرة التي كررها في المحافل المحلية والدولية هاجس يشغل باله، وهم يسعى إلى تحقيقه، ومثالية يأمل أن تتحقق على أرض الواقع، فيعيد في الخطاب الملكي لهذا العام إلى الأذهان ما سبق الحديث عنه من الدعوة إلى الحوار، ويستشهد بما حصل من جهود ومنجزات قادها بنفسه – أيده الله –،ورعاها ودعمها، حتى أثمرت هذه الجهود تحولات أساسية، وقناعات دولية، ونتائج في هذا الطريق ملموسة، وباركت الأسرة الدولية هذه المساعي العظيمة، فيقول يحفظه الله: (في موسم الحج الماضي حدثتكم عن أهمية الحوار بين أتباع الأديان، حيث دعت المملكة العربية السعودية إلى لقاء بين المسلمين في مكة المكرمة لمناقشة فكرة الحوار، شارك فيه علماء ومفكرو الأمة الإسلامية، أسفر عن الترحيب بالفكرة وتأصيلها تأصيلاً شرعياً، وأعقب ذلك مؤتمر عالمي في مدريد ضم ممثلين عن الأديان والثقافات، واستعرض ما صدر عن لقاء مكة وأصدر بياناً مرحباً بالفكرة ودعا إلى تطويرها، كما شهدت الجمعية العامة للأمم المتحدة اجتماعاً عالي المستوى حضره العديد من قادة العالم البارزين، حيث باركت الأسرة الدولية بأكملها فكرة الحوار).

وهكذا يكون حديث الأفعال، وترصد المنجزات مبادرات عظماء الرجال، وهكذا تؤدى الأمانة، وتتجسد القدوة، حينما تتبع المبادرات بالتنفيذ، وتحشد الطاقات للتطبيق، لتثبت للعالم أننا أمة قول وفعل، أمة علم وعمل، فلله الحمد على ما من به، ونسأل الله جل وعلا أن يجعل هذه الجهود نصراً وعزاً للإسلام وأهله.

وفي هذا العام كان هناك بعد آخر له دور أساس في نجاح هذا الأسلوب المثالي لإقامة العلاقات، وقيام حوار الحضارات، ألا وهو الحوار الداخلي، الذي يهدف إلى القضاء على المشكلات الداخلية، وتجاوز الأزمات التي يعيشها المسلمون، ففي الوقت الذي يكون فيه طموح القائد إعطاء الصورة المثلى عن الإسلام وأحكامه ومثله وأخلاقه، وعرضه للآخر بهذه الأساليب الفاعلة المؤثرة، فإن ذلك لن يتم إلا بعد إصلاح الأوضاع الداخلية، وترميم ما كان ويكون من فساد سببه تراكمات وأخطاء فردية وجماعية، برز هذا الفساد بصور عديدة أبرزها ما بينه خادم الحرمين الشريفين – حفظه الله –: الفرقة بين المسلمين، والجهل والغلو والإرهاب، وصدق – حفظه الله وأيده – إذ لا يمكن للمسلمين أن يقدموا الإسلام كعلاج وحل، وكخيار أمثل إلا إذا خلا من هذه الجوانب الهادمة المشوهة لصورة الإسلام، فالله تعالى يقول: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾، ويقول: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ فالفرقة سبب لذهاب القوة، والفشل الداخلي والخارجي، والجهل أساس كل بلاء، ومنبع كل فكر وضلالة، والغلو والإرهاب خروج عن منهج الوسط الذي جعله الله ميزة للأمة الإسلامية: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾، ومعول هدم بليت به الأمة الإسلامية منذ عصورها الأولى وإلى يومنا هذا، ولن نتمكن من التقدم في أي سبيل حتى يتم تحجيم هذه الأدواء، وإلا فإنها عقبات تهدد آمال المسلمين كما قال المليك المفدى يحفظه الله، فالحوار الداخلي مكانته عالية، وأهميته بالغة للوصول إلى الهدف الأسمى، والمقصد الأسنى ألا وهو وحدة الصف، وجمع الكلمة ولذلك يقول خادم الحرمين حفظه الله – في الخطاب الملكي –: (وهذا ما يجعل حوار الأمة مع نفسها ضرورة لوحدة المواقف، وتعزيز الاعتدال والوسطية وإزالة أسباب النزاع، والقضاء على التطرف، وما ذلك على الله بعزيز).

واللفتة الجميلة في هذا الخطاب اليوم هي معالجة هذه الأدواء بالأسلوب الحكيم أسلوب الحوار، فكما أن الحوار مع الآخر ضرورة لإيصال رسالة الإسلام وصورة الإسلام الحقة، فهو ضرورة لمعالجة الأدواء التي تعاني منها أمة الإسلام من الداخل، وهذه المعالجة الحوارية هي المناسبة لظروف الوقت، والعنف لا يولد إلا العنف.

والأصل في هذا ما هدى إليه قول الله سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

وأما البعد الأخير الذي أشار إليه خادم الحرمين الشريفين في الخطاب الملكي العام الماضي وأكد عليه فهو البعد الاجتماعي، وذلك بالتأكيد على الأسرة وتماسكها حيث قال – يحفظه الله –: (والحرص على أساس كل مجتمع وهي الأسرة فبدون الحرص على تماسك الأسرة والمحبة والاحترام وروح الإيثار بين أفرادها قلن يكون هناك مجتمع متماسك، وسوف نفقد ذلك الخيط الذي يربط أوصال المجتمع).

فالأسرة هي نواة المجتمع، وبصلاحها تصلح المجتمعات، وباستقامتها تستقيم الأحوال، والله تعالى قطر الناس على الاجتماع والتعايش والإنسان مدني بطبعه ،فلا يمكنه تحقيق مصالحه وتنفيذ مآربه إلا بالاجتماع، ولا يتحقق الاجتماع إلا من خلال الأسر، وإلى هذا تشير دلالة النص القرآني: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ فالمسؤولية يجب أن تتوجه أولاً وقبل كل شيء إلى الأسرة، والتنشئة الاجتماعية يجب أن تؤسس من خلالها، وإذا حصل ذلك تم الخير للمجتمع وللبشرية جمعاء، ويشير إلى هذا التسلسل في المسؤوليات قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فالأمير الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم والعبد راع على مال سيده وهو مسؤول عنه ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته).

وبعد فهذه مضامين سامية تضمنها الخطاب الملكي في هذا العام وما قبله أردت الوقوف عليها، والتأكيد عليها، وإني أؤكد على أن هذا الخطاب الذي تفضل به المليك في هذا العام وما جاء في خطاب العام الماضي غاية في الأهمية، وجاء في وقت وظرف بالغ الحساسية، وتضمن أسساً تعين على الأمة على مواجهة التحديات وحل المشكلات، وتوحيد الصف، ولذا فهو جدير بأن يعتنى به وتبرز مضامينه ودلالاته.

وفي الختام يشرفني أن أرفع لمقام خادم الحرمين الشريفين خالص الشكر والامتنان، وأصدق التهاني والتبريكات بالنجاح الباهر الذي اتسم به موسم الحج هذا العام، فقد كان بحق من أنجح وأروع المواسم، وصدر الحجاج من المشاعر والمناسك وهم يدركون أثر هذه النعمة، ويلهجون بالثناء على الله سبحانه، ثم على من كان سبباً فيها، فلله الحمد أولاً وآخراً على هذه النعم العظيمة، ونسأل الله تعالى أن يحفظ على بلادنا أمنها وإيمانها وولاة أمرها، وأن يجعل ما قدموه ويقدمونه من تسهيلات لضيوف الرحمن، وجهود مباركة جبارة للعمل على رضاهم في موازين حسناتهم، إنه سميع مجيب.